الجهاد في سبيل الله

المؤلف: محمد عزة دروزة

عرض وتعليق: محمد حسن زراقط

الناشر: المكتبة العصرية - بيروت
التاريخ: الطبعة الأولى ١٩٨٨

يقدم محمد عزة دَروزة لكتابه «الجهاد في سبيل الله» بقوله: «**كتبنا هذا الكتاب من وحي الظروف التي نعيشها والتي تحرك فيها العرب، وخاضوا في رمضان ١٣٩٣ معركة كبرى في سبيل تحرير ما اغتصبه اليهود من أراضيهم في أقطار سورية، ومصر، والأردن، وفلسطين**»[١].

ويؤمن محمد عزة دروزة كما الكثيرون غيره أن كلمة الجهاد لا تومئ إلى معنى واحد في كل ترددداتها في القرآن الكريم، بل ربما تعني أحياناً بذل الجهد لتحصيل أمر، سواء كان ذلك بوسيلة القتال أم بغيرها من الوسائل. ومن هنا، يُعَد بذل الجهد للتأمل في آيات الله في الآفاق والأنفس جهاداً في أعلى مراتبه.

يحاول دروزة في الفصل الأول من كتابه بيان أهمية الجهاد وخطورته في حياة الأمة مشيراً إلى ما لا يريد الكثيرون فهمه عن عمد، أو غير عمد، وهو أن هذا الفعل لا يراد به الهجوم بل الدفاع «**...حينما تكون الدولة الإسلامية، والكيان الإسلامي، والدعوة الإسلامية عرضة للتهجم والتهضم والبغي**»[٢]. ويرى أن من أبشع آثار ترك الجهاد خطورةً ما يتعرض له المسلمون من وقوع تحت نير الذل، والاستعباد، والاستعمار، وما ضياع فلسطين إلا إحدى الثمار المرة لهذه الشجرة الخبيثة[٣].

السمات الإنسانية للجهاد في الإسلام:

يرى دروزة أن دعوة الجهاد في الإسلام ما هي دعوة حرب، واستعمار، واكتساب لمزيد من الأرض، والأتباع؛ وذلك لأن «**خطة الدعوة إلى سبيل الله كما رسمها القرآن وسار عليه رسول الله (ص) قائمة على أساس الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، وأن الجهاد بمعنى القتال الواجب هو ضد من يقف في سبيل هذه الدعوة ويعطلها ويصد عنها ويعتدي على المستجيبين إليها...**»[٤].

وبعد تقريره لمبدأ الدفاع في الجهاد

يشير إلى بعض الآيات التي يبدو منها تجويز قتال أهل الكتاب كقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[٥].

فيرى أن لا منافاة بين هذه الآية وبين تلك القاعدة الواضحة؛ وذلك لأن هذه الآية لا تأمر بقتال أهل الكتاب بل تدعو المسلمين إلى قتال جماعة محددة «من الذين أوتوا الكتاب» فلعل هذه الجماعة فيها من المواصفات ما يبرر لقتالها وإعلان الحرب الدفاعية ضدها.

تشريع الجهاد بين مكة والمدينة:

يعتقد دروزة أن الآيات التي نزلت لتشرع للجهاد لم تنزل إلا في المدينة؛ **«حيث كان العهد المكي عهد دعوة وقلة وضعف وأذى بالنسبة للمسلمين، فلم يؤمروا بقتال الذين كانوا ينالونهم بالأذى الشديد الذي كان يصل إلى حد التعذيب، وإزهاق الأرواح لحمل الضعفاء والإرقاء من المؤمنين على الارتداد»**[٦].

الغنائم ليست هدفاً:

ويتوقف دروزة عند شبهة أثيرت في وجه الجهاد في الإسلام، وهي أن الهدف من الجهاد هو اكتساب المغنم، فيقول: إن **«النصوص والمتواتر من الأحاديث، والوقائع تؤيد كون الجهاد لم يستهدف المغانم... وآية سورة النساء هذه ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا لا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعلمون خبيراً﴾ قد احتوت رداً حاسماً على هذا القول»**[٧].

جهاد النساء:

يؤمن دروزة أن آيات الجهاد مطلقة لا تختص بالرجال وحدهم بل تشمل النساء أيضاً. وهذه الفريضة الإسلامية كغيرها من الفرائض عامة للرجال والنساء، وما ورد من الأحاديث التي تنهى عن مشاركة النساء في الحرب ليست صحيحة، ومن ذلك ما رواه الطبراني عن أنس بن مالك قال: **«قالت أم سليم يا رسول الله أخرج معك إلى الغزو؟ قال: يا أم سليم إنه لم يكتب على النساء الجهاد. قالت: أداوي الجرحى وأعالج العين وأسقي الماء، قال: نعم إذاً»**[٨].

الجهاد والحرب خيار يترك عند عدم مبرراته:

شرع الله الجهاد ضمن مبررات محددة، ووضع له ضوابط تحكمه كي لا

يتجاوز المكلف حدوده، فيطغى، ويظلم بعد أن كان رفع الظلم هو شعاره ودافعه نحو القتال. ومن هنا، فلا تجوز متابعة القتال لو أعلن العدو إسلامه، ولو احتمل كونه غير صادق في دعواه، وكذلك يجب التوقف عن القتال، فيما لو مال العدو إلى السلم وترك القتال وذلك ما يكشف عنه قوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم ما جنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾[٩]. «الحكمة والسمو ظاهران في ما احتوته الآيات من تعليم، فغاية الجهاد وهو حمل العدو على الكف عن عدائه والانتهاء من موقفه بالإسلام، أو المسالمة، أو الخضوع؛ فإذا صار هذا ممكناً حصل المقصود، مهما كانت سوابق ذلك العدو ونياته الآتية».

ولا ينسى دروزة أن يشير إلى عدم سريان هذا الحكم على دولة إسرائيل الغاصبة لفلسطين فيقول: «...أما اليهود في فلسطين، فهم أعداء معتدون على دار المسلمين والعرب، مغتصبون لما احتلوه من فلسطين وأقاموا فيه دولة لهم اغتصاباً بمساعدة طواغيت الاستعمار أعداء العرب والمسلمين، بعد أن حاربوا المسلمين والعرب فيها أشد حرب، وآذوهم أشر أذى وطردوهم من مدنهم وقراهم واستولوا على بيوتهم، ومزارعهم، وبساتينهم، وكرومهم..[ومن هنا] لا ينطبق عليهم معنى الجنوح إلى السلم إذا أعلنوا أنهم يريدون الصلح مع المسلمين والعرب مع احتفاظهم بما اغتصبوه من دارهم والدولة التي أقاموها بالبغي والعدوان والحديد على أنقاضهم»[١٠].

ختام:

يمثل كتاب «الجهاد في سبيل الله»، أحد البواكير الأولى في مجال التفسير الموضوعي لآيات القرآن، ويعد من المحطات الأساسية في هذا الميدان ورغم مرور زمن على تدوينه وانتشاره، إلا أنه لا يزال يلامس بعض مكامن الوجع الفكري في عصرنا الراهن.

الهوامش:

(١) الجهاد في سبيل الله، ص ٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ١١.
(٣) أنظر: المصدر نفسه، ص ١٣.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٧.
(٥) التوبة: ٢٩.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) المصدر نفسه، ص ٨٦.
(٨) المصدر نفسه، ص ١٠٩.
(٩) الأنفال: ٦١.
(١٠) المصدر نفسه، ١٣١.